حلب في العصور الحجرية

سلطان محيسن

المديرية العامة للآثار والمتاحف، جامعة دمشق

يتناول البحث منطقة حلب في العصور الحجرية من خلال نتائج المسوحات والتنقيبات الأثرية التي جرت في هذه المنطقة، وبخاصة بدءاً من السبعينات، ودلت على استيطان المنطقة المشار إليها منذ عصور ماقبل التاريخ، وهو استيطان تؤكده الأدوات الحجرية العائدة لمختلف مراحل تلك العصور والتي أتت من العديد من المواقع المنتشرة في المنطقة المشار إليها وأهمها :

- حوض نهر قويق، حيث عثر على آثار استيطان من العصر الحجري القديم الأدنى والقديم الأوسط ومن العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار آ (بخاصة موقع القرامل) ومن نهاية العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب، ثم العصر الحجري الحديث الفخاري والعصر الحجري النحاسي.

- في حوض وادي الساجور، حيث وجدت آثار استيطان من العصر الآشولي الأعلى وعلى إمتداد العصر الحجري القديم الأوسط (اللفلوازي ـ الموستيري) ومن العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب والعصر الحجري النحاسي (موقع ملا أسعد وقره ديره).

- ويتعرض البحث للنتائج الأولية التي أتت من منخفض حوض الجبول والتي أظهرت دلائل استيطان من مختلف العصور ولكن أهمها كانت من العصر الكباري (موقع عين بير الزرقا والمكمن).

وأخيراً نستعرض المكتشفات المتميزة التي أتت من منطقة عفرين وأهمها اكتشافات مغارة الديدرية /٢/ حيث عثر على بقايا هياكل نياندرتالية ذات أهمية خاصة منها هيكل عظمي، كامل تقريباً، لطفل عمره حوالي السنتين إضافة الى معطيات أثرية ومستحاثية مختلفة.

❀ ❀ ❀

سيتناول الجزء الأول من بحثنا مناطق هضبة حلب وسهولها، ومنخفض الجبول والمنطقة الشامية الشمالية.

جغرافياً: تبلغ مساحة هذه المنطقة حوالي ٢٠,٠٠٠كم٢ وتقع بين الحدود التركية شمالاً وإقليم الجزيرة والفرات شرقاً وإقليم حوض العاصي غرباً وإقليم الوسط السوري جنوباً. وهي، عموماً، منطقة منبسطة يتراوح ارتفاعها بين ٣٠٠ ـ ٤٥٠م، من أبرز تضاريسها وادي الساجور وجبل أم ميال وجبل جال الجرن في الشمال ووادي قويق مع شبكة أوديته ومجموعة سبخات الجبول ونهر الذهب إضافة إلى جبل الحص (الأحص) وجبل شبيت في الوسط، بينما تحتل البادية قسمها الجنوبي.

جيولوجياً: تسود في تلك المنطقة صخور رسوبية عائدة إلى الكريتاسي / Crétacé / إضافة إلى صخور الحقب الثالث (الباليوجين Paléogène والنيوجين Néogène). أما الترسبات الرباعية (Quaternaire) فإنها تقوم بشكل خاص في أحواض نهري الساجور وقويق وفي سبخة الجبول والسبخات المجاورة والوديان الفرعية الصغيرة والكبيرة. كما تظهر في الأقاليم الصخور البازلتية وخاصة في مناطق جبل الحص وشبيت وأبو ظهور وتل خريب وهي بخاصة من عصر النيوجين (عبد السلام ١٩٨٩ / ١٩٩٠).

أبحاث ماقبل التاريخ:

١ـ هضبة حلب وسهولها:

وتركزت دراسات ماقبل التاريخ بخاصة في مناطق حوض الساجور (Besançon et *alii,* 1980; Sanlaville, 1985) ومسح منطقة حوض قويق والمطخ (Matthers,1981).

٢ـ منطقة منخفض الجبول:

وهي منطقة لم تكن قد درست بعد أثناء إنعقاد ندوة حلب وطريق الحرير، إذ بدأت فيها الأبحاث منذ عام ١٩٩٥م، وتتابعت في أعوام ١٩٩٦و ١٩٩٧م، ومن المتوقع استمرارها في عامي ١٩٩٨ ـ ١٩٩٩م، ونرى من المفيد التعرض إلى النتائج الأولية لهذه الأبحاث، بالرغم من أنها لم تنشر بعد.

٣ـ المنطقة الشامية الشمالية:

ليست لدينا معطيات عنها إذ لم تجر فيها حتى الآن أية أبحاث.

٤ـ كما أننا سوف نتناول في الجزء الثاني من بحثنا منطقة حوض نهر عفرين نظراً للأهمية الخاصة للمكتشفات التي أتت منها بالرغم من أنها، جغرافياً، تشكل جزءاً من إقليم حوض العاصي لكنها تابعة إدارياً لمحافظة حلب.

والآن سوف نستعرض نتائج أبحاث ماقبل التاريخ التي جرت في تلك المناطق المشار إليها حسب تتابع حصولها (الشكل: ١).

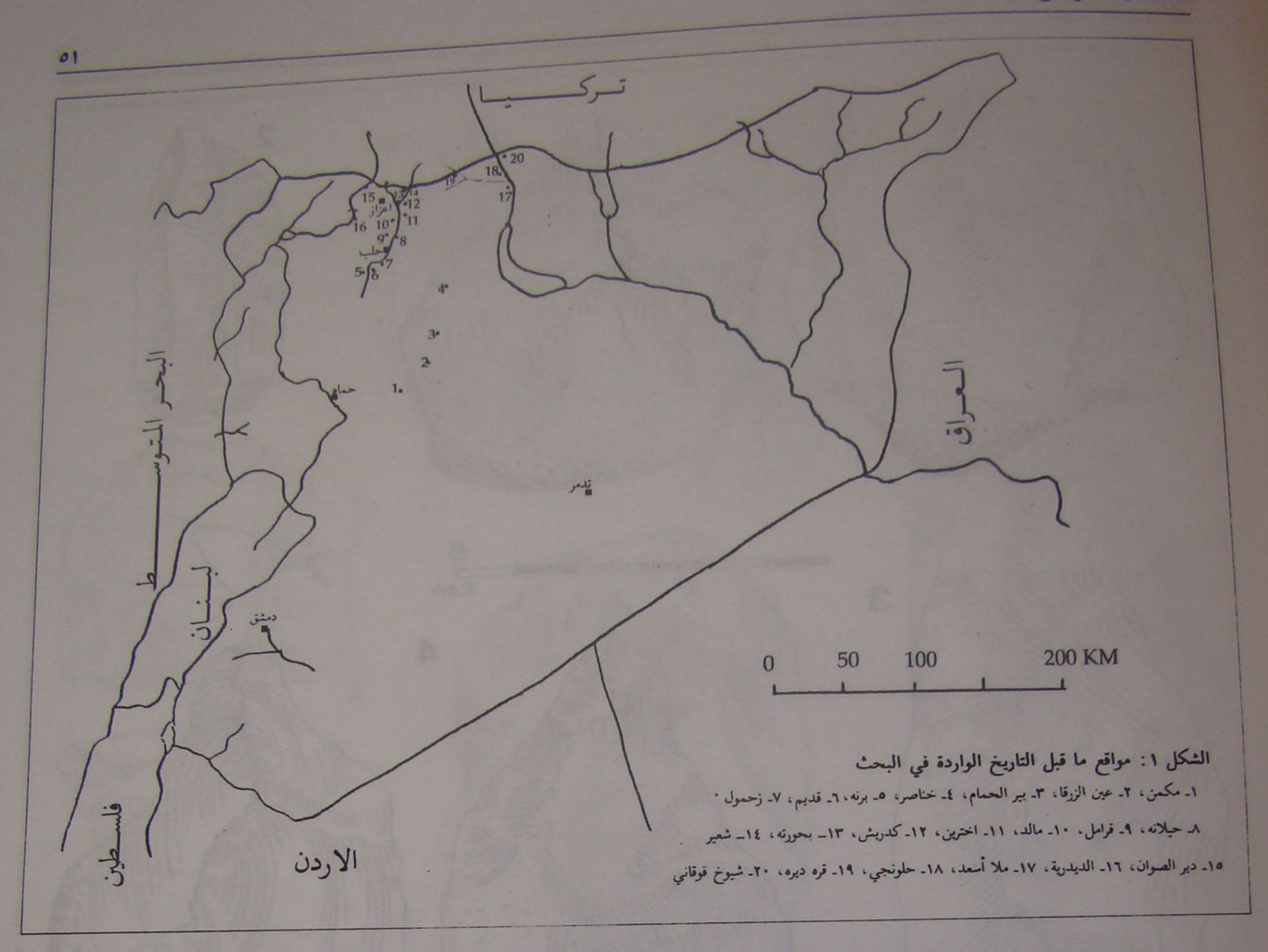
١. حوض نهر قويق والمطخ:

يمتد حوض نهر قويق على مسافة حوالي ١٠٠كم ويروي منطقة يتراوح عرضها بين ٤٠ ـ ٥٠ كم شمال حلب وحتى حوالي ٢٥كم في منطقة حلب نفسها. ولهذا النهر روافد هامة، شرقية وغربية، في جزئه الأعلى بخاصة. عملت في هذه المنطقة، كما أشرنا، بعثة من معهد الآثار التابع لجامعة لندن، Institute of Archaeology of London University، وذلك لثلاث مواسم متتالية ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩. حيث قامت بمسح شامل، حددت إثره الاستيطان البشري والمواقع الأثرية العائدة لمختلف المراحل التاريخية. ولكننا هنا سنتناول، فقط، المواقع العائدة لعصور ماقبل التاريخ.

وقد إلتقطت آثار عصور ماقبل التاريخ من أكثر من ٤٠ موقعاً، كلها تقريباً تلال أثرية. حيث درست لورين كوبلاند L.Copeland الأدوات الصوانية، بينما درس جيمس ميلارت J.Mellaart الأواني الفخارية.

آ. العصر الحجري القديم الأدنى:

يمثل هذا العصر المرحلة الأولى والأقدم من العصر الحجري القديم، الباليوليت الأدنى (Paléolithique Inférieur). وقد عاش فيه إنسان الهومواركتوس (Homo-Erectus) الذي صنع، بشكل عام، الفؤوس الحجرية (Bifaces) العائدة لما يسمى بالحضارة الآشولية (Acheuléen). ظهر هذا الإنسان في أفريقية منذ حوالي ١,٥ مليون سنة خلت ثم انتشر فيما بعد إلى بقية القارات (Chavaillon,1996). وجدت الآثار العائدة لهذا العصر على سطوح المصاطب النهرية الرباعية لنهر قويق وبخاصة تل شعير وتل بحورته. (الشكل: ٢ و٣) وكانت تلك الآثار عبارة عن أدوات حجرية، ليست في مكانها الأصلي إنما قد جرفتها عوامل



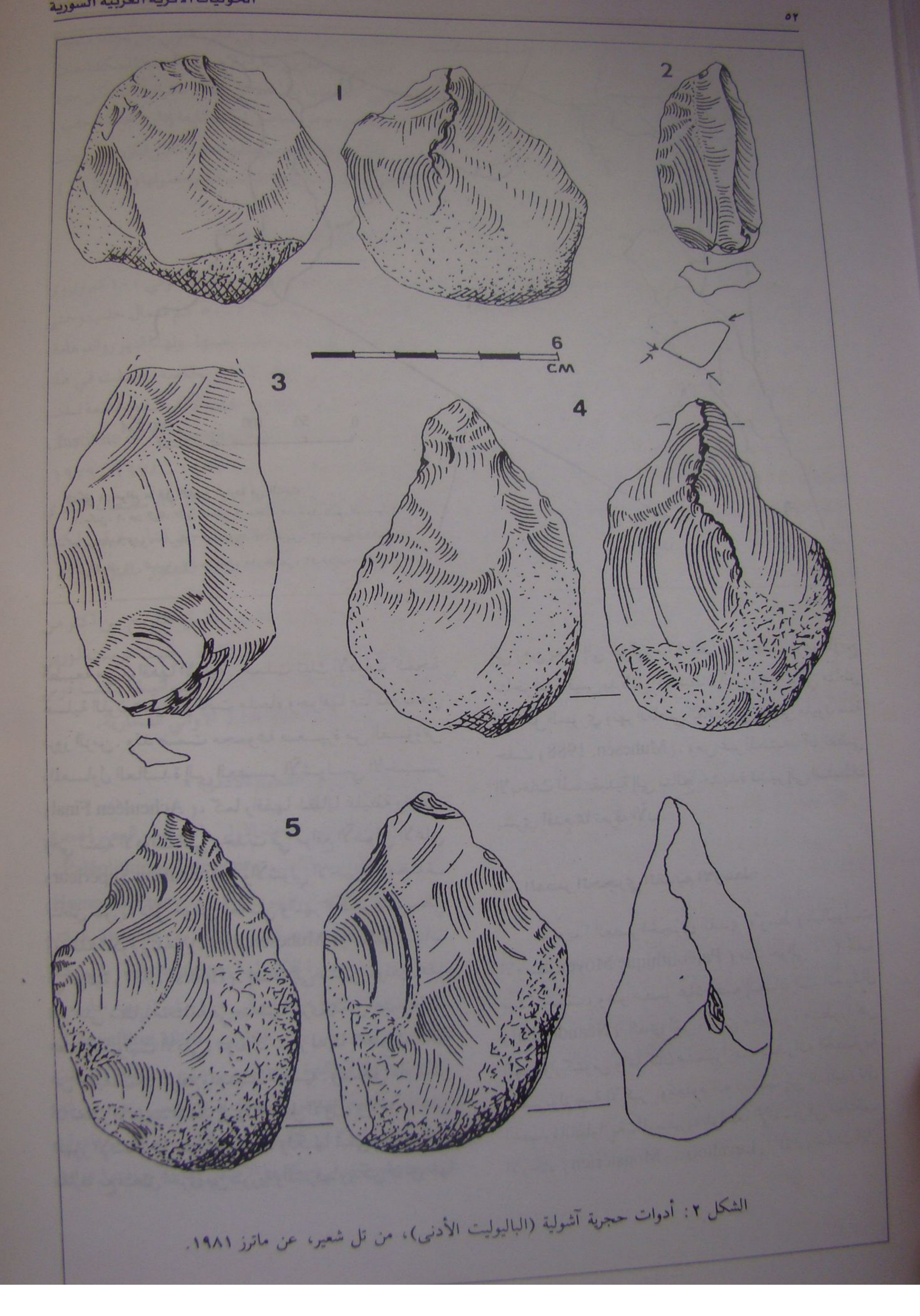
الشكل ١: مواقع ما قبل التاريخ الواردة في البحث

١ـ مكمن، ٢ـ عين الزرقا، ٣ـ بير الحمام، ٤ـ خناصر، ٥ـ برنه، ٦ـ قديم، ٧ـ زحمول ·
٨ـ حيلانه، ٩ـ قرامل، ١٠ـ مالد، ١١ـ اخترين، ١٢ـ كدريش، ١٣ـ بحورته، ١٤ـ شعير .
١٥ـ دير الصوان، ١٦ـ الديدرية، ١٧ـ ملا أسعد، ١٨ـ حلونجي، ١٩ـ قره ديره، ٢٠ـ شيوخ فوقاني

الطبيعة من مواقعها الأولية. حملت تلك الأدوات كمخة عسلية اللون عموماً وكانت ملساء وحوافها متآكلة بفعل مرور الزمن. وقد ضمت مجموعة صغيرة من الفؤوس والمعاول العائدة إلى العصر الآشولي الأخير (Acheuléen Final)، كما رافقها شظايا غليظة ونوى. وهي تشبه الأدوات التي وجدت في مواقع الآشولي الأعلى (Acheuléen Supérieur) والآشولي الأخير في مختلف مناطق سورية مثل حوض العاصي والنهر الكبير الشمالي ومنطقة الكوم وتدمر (Muhesen, 1992) ومنطقة عينتاب في تركية (Hours, 1987). إضافة إلى هذين الموقعين فقد عثر على شظايا مختلفة في مناطق أخرى يمكن اعتبارها من عصر الباليوليت الأدنى، دون أن تتوفر لدينا معطيات كافية عن حقيقة تلك المواقع وأهميتها العلمية. وبشكل عام يمكن أن نعتبر الأدوات المشار إليها الدليل الأول، والأقدم، على ظهور الإنسان في منطقة حلب، ولكنها تبقى دلائل فقيرة مقارنة مع مناطق أخرى من سورية والمشرق. ويمكن أن نؤرخها إلى زمن يعود إلى حوالي ٤٠٠ ألف سنة خلت، وهو تاريخ متأخر إذا ماقيس بدلائل الاستيطان التي وجدت في مناطق الساحل السوري ونهر العاصي العائدة إلى حوالي مليون سنة خلت (Muhesen, 1988). ومن غير المستبعد أن تفضي الأبحاث المستقبلية إلى نتائج جديدة تشير إلى استيطان بشري أقدم مما نعرفه الآن.

ب ـ العصر الحجري القديم الأوسط:

لقد بدأ العصر الحجري القديم الأوسط (الباليوليت الأوسط Paléolithique Moyen) منذ حوالي ٢٠٠ ألف سنة خلت، وهو عصر عاش فيه إنسان النياندرتال (Néanderthal) الذي أتى، على مايبدو، متطوراً عن الهوموار كتوس وإنما كان متميزاً عنه بقدراته الحضارية والفيزيولوجية الأكبر. ومعلوم أنه تنسب إلى النياندرتال الحضارة اللفلوازية ـ الموستيرية الواسعة الإنتشار في مختلف الأرجاء (Levalloiso - Moustérien). لقد وجدت آثار



الشكل ٢ : أدوات حجرية آشولية (الباليوليت الأدنى)، من تل شعير، عن ماترز ١٩٨١.

الشكل ٣: أدوات حجرية آشولية (الباليوليت الأدنى)، من تل شعير، عن ماترز ١٩٨١.

الباليوليت الأوسط في حوالي عشرين موقعاً، بينها بحورته وتل شعير، وكانت تلك الآثار عبارة عن أدوات حجرية، نصال ومقاحف ونوى، من النوع اللفلوازي ـ الموستيري المعروف في المشرق، والتي يمكن أن نعطيها عمراً تقريبياً يتراوح بين حوالي ١٠٠ إلى ٥٠ ألف سنة خلت (الشكل: ٤ و ٥).

إن آثار هذا العصر هي أيضاً قليلة إذا قيست ببقية المناطق السورية (مثل الساحل السوري وحوض العاصي والفرات والبادية، التي كشف فيها عن مئات المواقع والمغاور والملاجىء ... الخ). والتي تميزت بكثافة كبيرة جداً للأدوات الحجرية العائدة للعصر المشار إليه، ومهما يكن فإن منطقة حلب كانت مستوطنة، بشكل واضح من قبل إنسان النياندرتال، وإن كان هذا الاستيطان ليس بنفس درجة غنى وكثافة المناطق الأخرى من سورية.

ج ـ العصر الحجري القديم الأعلى:

إن قلة، أو غياب، الدلائل العائدة للعصر الحجري القديم الأعلى (الباليوليت الأعلى Paléolithique Supérieur) هي من أهم المشاكل التي تواجه الباحثين في عصور ماقبل التاريخ في المشرق. بدأ هذا العصر منذ حوالي ٤٠ ألف سنة خلت واستمر حتى حوالي ١٢ ألف سنة ق.م وفيه ظهر نوع الإنسان العاقل (Homo-Sapiens) السلف المباشر للإنسان الحالي. ويلاحظ أن هذه المرحلة تتميز بندرة آثارها واقتصار معطياتها على الأدوات الحجرية، إذ لاوجود لمواقع غنية ومتنوعة كما هو الحال في بعض المناطق العالمية وبخاصة في أوربة الغربية. إن البحث قائم لتحديد الأسباب الحقيقية الكامنة خلف هذا الواقع وفيما إذا كانت أسباباً مناخية أم حضارية أم اجتماعية أم غير ذلك. وفي كل الأحوال فإن منطقة حلب لاتخرج عن ماهو معروف من بقية المناطق في المشرق العربي القديم إذ لم يتم العثور فيها، حتى الآن، على آثار واضحة وكافية لهذا العصر. ولا بد من استمرار الأبحاث المستقبلية وتطويرها، سواء على مستوى المشرق أو سورية، وذلك للوقوف على حقيقة هذا الأمر.

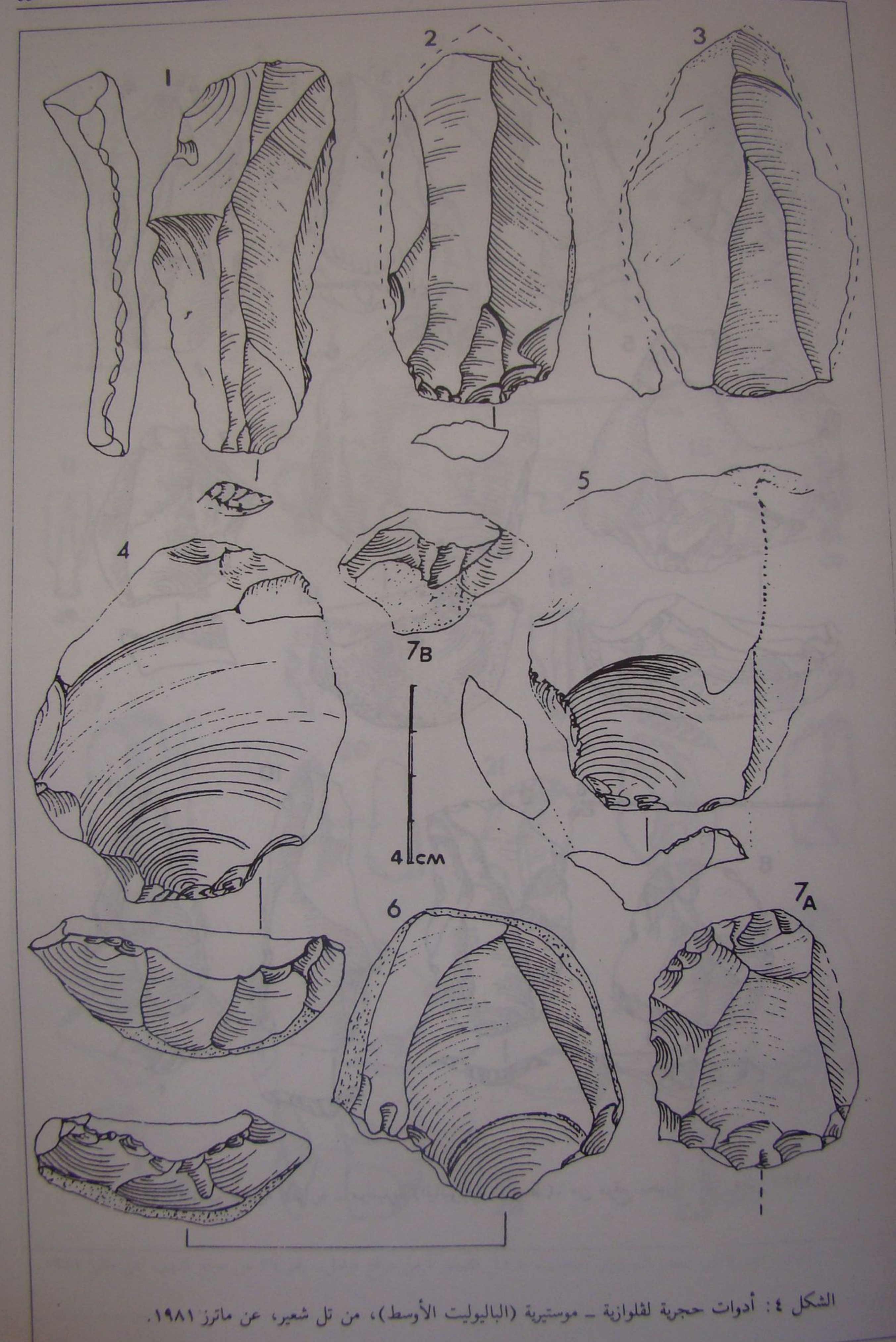
د ـ العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار آ (P.P.N.A)

بدأ العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار آ (Pre-Pottery Neolithic A) في حوالي الألف العاشر ق.م، وهو عصر تحول جذري في حياة إنسان ماقبل التاريخ الذي ترك حياة التنقل والصيد والإلتقاط للحيوانات والنباتات البرية، إلى البناء والاستقرار وتدجين الحيوانات وزراعة الحبوب، وهذا مايسميه الباحثون الثورة النيوليتية Révolution Néolithique (Cauvin, 1978).

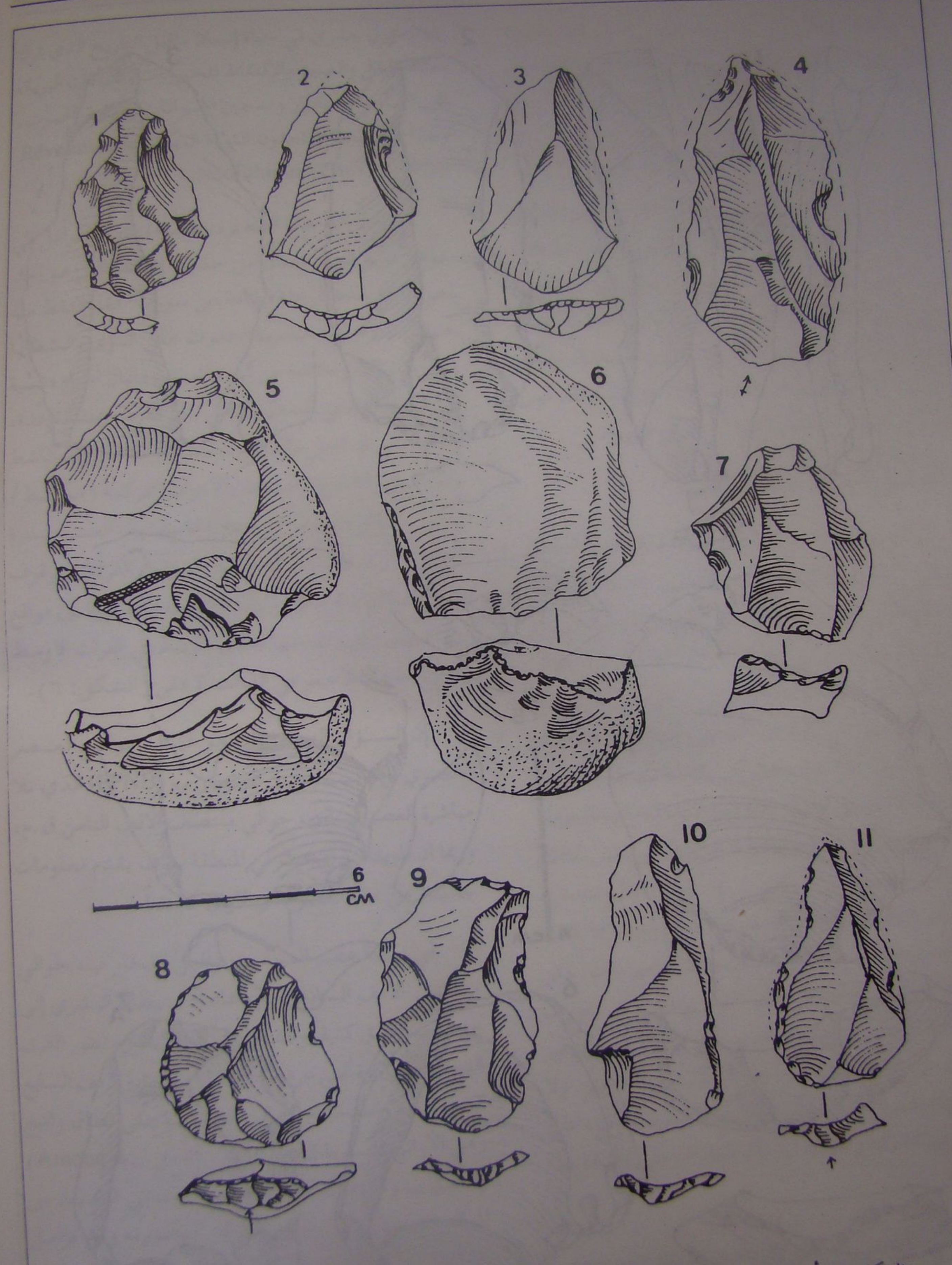
ظهرت آثار هذا العصر، بخاصة، في تل قرامل في حوض قويق إلى الشمال من حلب. إن هذا التل هو أحد أهم مواقع هذه المرحلة الهامة من سورية. فقد التقط منه حوالي ٥٠٠ أداة حجرية احتوت على النوى والشظايا ورؤوس نبال، وبخاصة من النوع المسمى «نبال الخيام» نسبة الى موقع الخيام في فلسطين. وهي نبال مفرضه عند القاعدة، إضافة إلى المناجل والقطع المشذبة والفخار والمكاشط والأزاميل والأدوات المسننة والأدوات المركبة (مكشط/ مخرز ... إلخ). ونظراً للأهمية الخاصة لهذا العصر ولندرة المواقع نأمل تنقيب تل قرامل في المستقبل القريب للوقوف على حقيقته التاريخية وتحديد مكانته الحضارية بين مواقع هذا العصر، المعروف منها بخاصة المريبط في الفرات الأوسط وموقع الجرف الأحمر في الفرات الأعلى (الشكل: ٦).

إن السؤال الهام يبقى هو غياب مواقع العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب (PPNB) الذي تلا مباشرة العصر السابق، حوالي منتصف الألف الثامن ق.م، وربما أن المزيد من البحث في المنطقة سوف يقدم معلومات جديدة عن هذا العصر الذي لازال غامضاً.

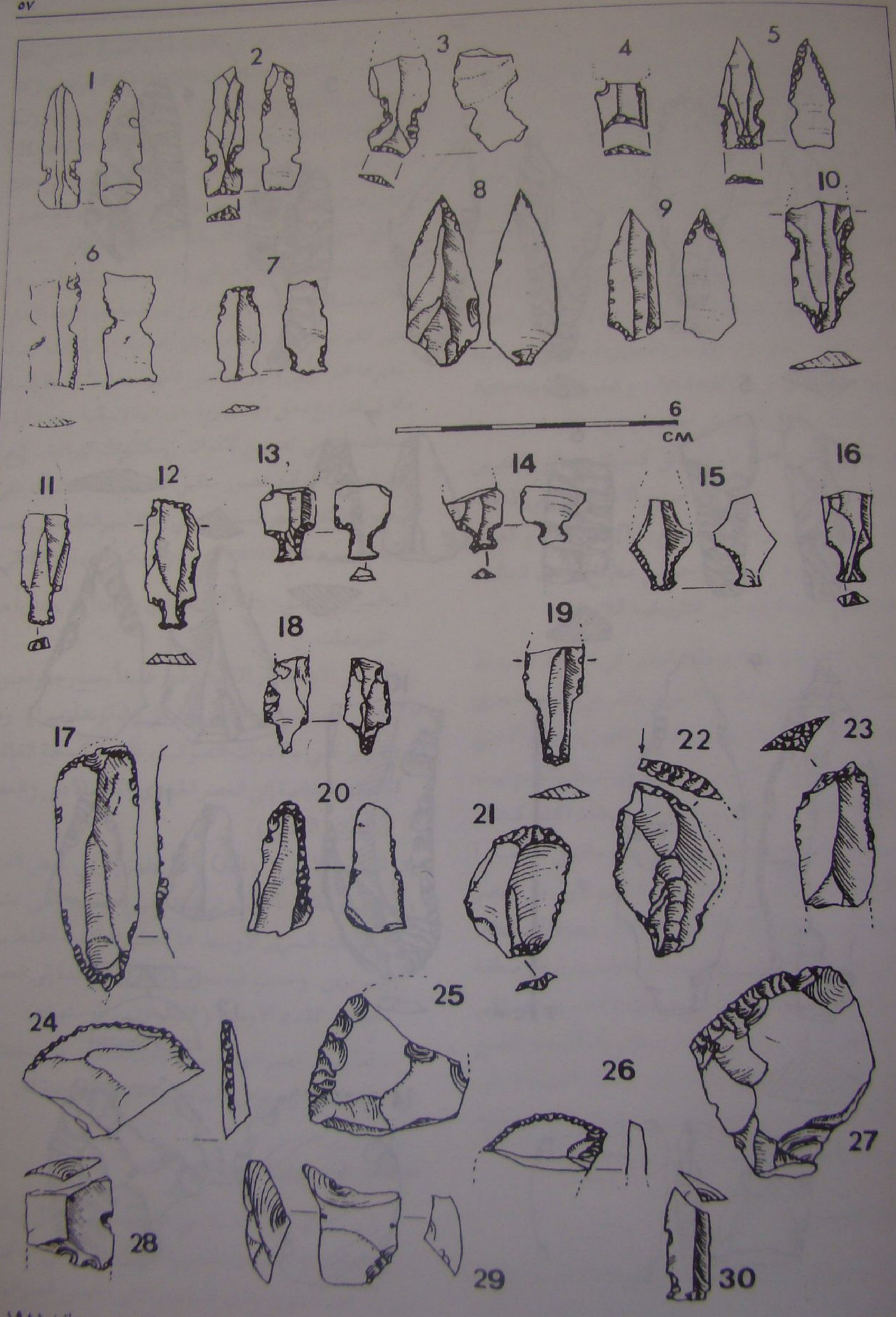
في نهاية عصر النيوليت ماقبل الفخار ب، حوالي منتصف الألف السابع ق.م، عاد الاستيطان البشري إلى حوض نهر قويق كثيفاً وتجذرت عملية استقرار وتطور القرى النيوليتية الباكرة التي عرف سكانها، مع نهاية الألف السابع ق.م، صنع واستخدام الآواني الفخارية على نطاق واسع وهي الآواني المنسوبة إلى مايسمى بالعمق آ (Amouq A) والعمق ب (Amouq B)، التي وجدت في العديد من المواقع أهمها، تل برنه وتل قديم وبحورته وتل قرامل واعزاز (الشكل: ٧). وعموماً فإن مواقع النيوليت الفخاري قد استخدمت نفس تقنيات العصر السابق قبل الفخار، وهي من النوع المعروف أيضاً في رأس الشمرة في السويات VB-VA.



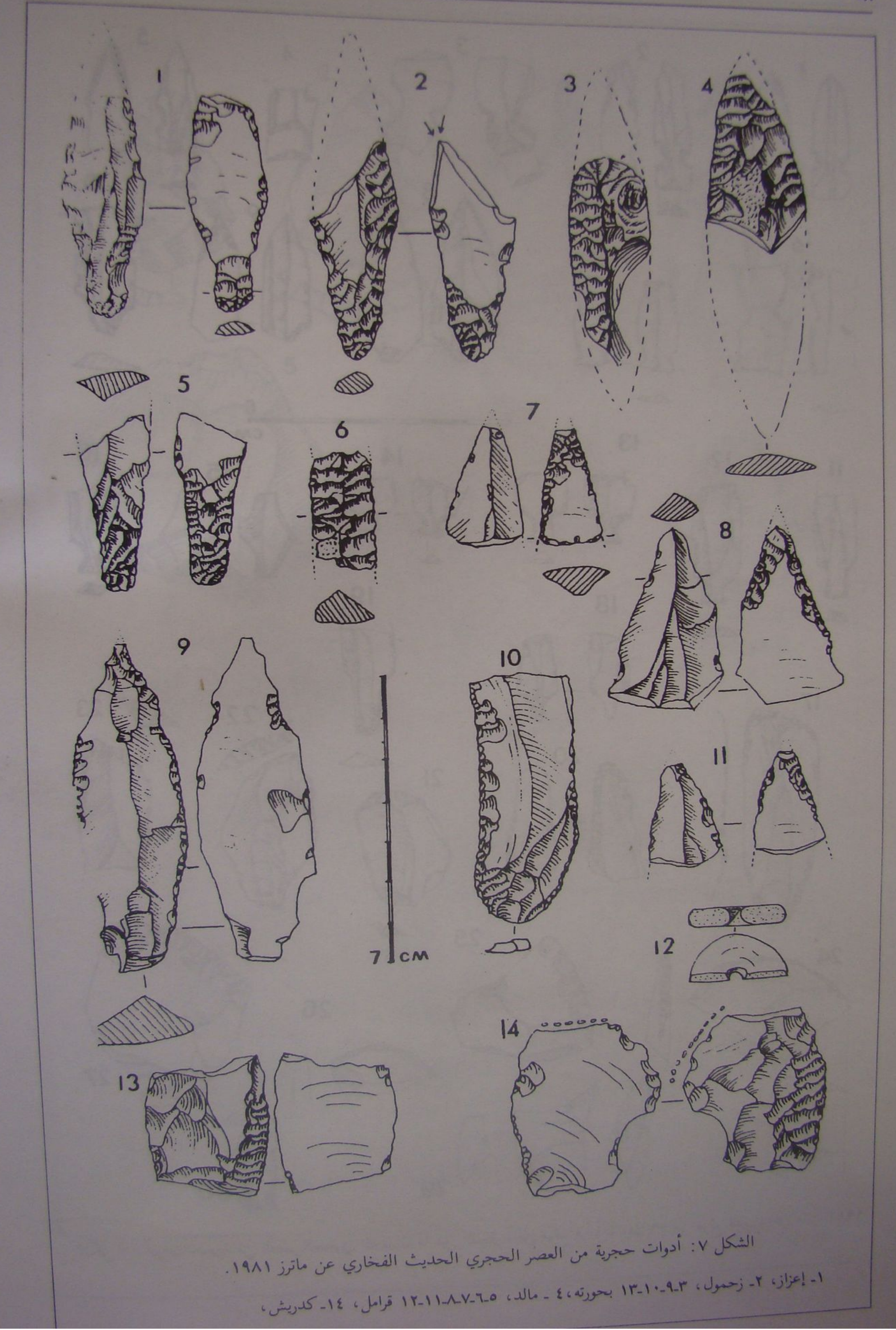
الشكل ٤: أدوات حجرية لفلوازية ــ موستيرية (الباليوليت الأوسط)، من تل شعير، عن ماترز ١٩٨١.



الشكل ٥ : أدوات حجرية لڤلوازية ـ موسيترية (الباليوليت الأوسط)، من موقع بحورته، عن ماترز ١٩٨١.



الشكل ٦ : أدوات حجرية من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار آ من موقع قرامل، رقم ٢٦ من موقع قديم، عن ماترز ١٩٨١.



الشكل ٧: أدوات حجرية من العصر الحجري الحديث الفخاري عن ماترز ١٩٨١.

١- إعزاز، ٢- زحمول، ٣-٩-١٠-١٣ بحورته، ٤ - مالد، ٥-٦-٧-٨-١١-١٢ قرامل، ١٤- كدريش،

العصر الحجري النحاسي:

بدأ العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت Chalcolithique) في حوالي منتصف الألف السادس ق.م واستمر حتى حوالي نهاية الألف الرابع ق.م وقد سادت خلاله حضارات جديدة تمثل تطوراً طبيعياً لحضارات العصر السابق. ولكن أهم مايميزها هو الفخار الملون العائد إلى حضارة حلف التي انتشرت بخاصة حتى الألف الخامس ق.م. والتي تلتها حضارة العبيد، حتى الألف الرابع ق.م. وقد تبين بأن معظم المواقع التي احتوت فخار العمق آ والعمق ب قد أعطت أيضاً فخار العصر الحجري النحاسي المنسوبة إلى مراحل العمق س (Amouq C) و العمق ي (Amouq E) ، والعائد إلى حضارتي حلف وعبيد حيث وجدت آثارهما في العديد من المواقع مثل كدريش ومالد واخترين وبحورته (الشكل: ٨). وقد استمر الاستيطان، في المنطقة المشار إليها، حتى مرحلة العمق ج (Amouq G) و العمق ف (Amouq F) أي حتى حوالي مطلع الألف الثالث ق.م، وعلى امتداد العصور التاريخية اللاحقة.

هكذا نلاحظ بأن استيطان البشر في منطقة حلب قد بدأ منذ العصر الحجري القديم الأدنى واستمر في العصر الحجري القديم الأوسط مع انقطاع بدأ في العصر الحجري القديم الأعلى واستمر على امتداد العصر الحجري الوسيط (الميزوليت Mésolithique). ثم أصبح هذا الاستيطان أكثر كثافة وأهمية في العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار آ (PPNA) الذي تلته فترة انقطاع في القسم الأول من العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب (PPNB) ليعود الاستيطان هاماً في نهاية هذا العصر. إن السمات الحضارية لمواقع منطقة حلب تجعلها، عموماً، أقرب إلى منطقة العمق منها إلى منطقة الفرات إذ يتواجد فيها، وبخاصة، الفخار المطبّع والمحزز (Incised/Impressed) . كما استمر الاستيطان على امتداد الألفين السادس والخامس والرابع بل ازداد كثافة مع مطلع الألف الثالث ق.م وعلى امتداد العصور التاريخية.

حوض الساجور:

لدينا بعض المعلومات السابقة التي تدل على أن منطقة الساجور قد استوطنت منذ العصر الحجري القديم. لكن أول مسح نظامي جرى في المنطقة المذكورة كان في عام ١٩٧٨م، بإدارة بول سانلاڤيل (P. Sanlaville) وبمشاركة جاك بيزانسون (J. Besançon) ولورين كوبلاند (L. Copeland) وهنري دوكونتنسون (H. de Contenson) . وسلطان محيسن. وقد هدف المسح الذي جرى في ذلك الحين إلى دراسة الواقع الجيومورفولوجي وتحديد مواقع عصور ماقبل التاريخ فيها (Besançon et *alii*, 1980) . لقد تمّ مسح منطقة بطول حوالي ٦٠كم غرب/شرق و ٢٠ - ٣٠كم شمال/ جنوب في حوض نهر الساجور الرافد الأعلى لنهر الفرات. هدف البحث إلى تحديد إمكانيات البيئة وتغيرها عبر الزمن وقدرتها على تامين متطلبات حياة إنسان ماقبل التاريخ، من مياه وثروة حيوانية ونباتية ومواد أولية استخدمت في تصنيع الأدوات وإمكانيات الزراعة...إلخ. وقد تبين أن مواقع عصور ماقبل التاريخ قد انتشرت على السهول المرتفعة لنهر الساجور وفي أسرّة النهرالعائدة إلى عصر البليستوسن (Pleistocène) والتي أمكن تحديدها كالتالي:

١- السرير الأعلى: (QFIII) الذي بدا متآكلاً وعارياً من الترسبات.

٢- السرير الأوسط: (QFII) ظهر ضيقاً ومتدرجاً واحتوى على ترسبات من الحصى والرمل (الكونغلوميرا) . وهو سرير غني بالأدوات الصوانية، ذات الكمخة القاتمة، العائدة بخاصة إلى العصر الحجري القديم الأدنى (العصر الآشولي الأعلى) .

٣- السرير الأدنى: (QFI) لم يظهر إلا في بعض أجزاء النهر وغالباً ماكانت ترسباته من الطمي، وهي تشبه ترسبات السرير الأوسط مما يخلق إمكانية الخلط بين السريرين. وجدت فيه بخاصة الأدوات العائدة إلى العصر الحجري القديم الأوسط (اللڤلوازي - الموستيري) .

أما سرير عصر الهولوسن (Holocène) فهو منتشر في كل مكان من حوض الساجور والأودية الفرعية له.

العصر الحجري القديم

لقد بدأت إقامة الإنسان في هذه المنطقة بشكل مبكر ودلت على ذلك الأدوات الحجرية التي انتشرت في أماكن عديدة. لقد احتوى وادي الساجور على الحصى الصوانية



الشكل ٨: أدوات حجرية من العصر الحجري النحاسي / النيوليت؟

١-١٠-١١ مالد، ٢-٣ صيلانة، ٤-٧-٨ كدريش، ٥-٦-٩ بحورته، ١٢- زحمول

التي كانت مواد أولية لابد منها لتصنيع الأدوات الحجرية التي انتشرت في حوض النهر وعلى السطوح العالية بكثافة كبيرة ومثلت دلائل استيطان من مختلف مراحل العصر الحجري القديم. بعض تلك الأدوات بدا قديماً جداً ولكن لم يتم العثور على آثار لصناعات حجرية واضحة يمكن مقارنتها مع ما وجد في حوض العاصي أو في منطقة النهر الكبير الشمالي.

إن أقدم صناعة حجرية في حوض الساجور تمثلها الأدوات الحجرية التي وجدت في السرير الأوسط للنهر والتي تنسب إلى مرحلة الآشولي الأعلى.

لقد تمّ الكشف عن حوالي خمسين موقعاً، تعود لمختلف مراحل العصر الحجري القديم الأدنى، انتشرت على المرتفعات والسطوح أو ضمن ترسبات الأسرة النهرية وبخاصة السرير الأوسط (QFII) والسرير الأدنى (QFI). وقد تبين بأن لاوجود لآثار العصر الآشولي الأدنى ولا لآثار العصر الآشولي الأوسط، مع أنه عثر على عدة أدوات صوانية يمكن أن تكون من العصرين المشار إليهما دون أن نستطيع الجزم في هذه النقطة.

إن أقدم آثار استيطان بشري واضح في حوض الساجور تنسب ،كما أشرنا، إلى العصر الآشولي الأعلى، حيث عثر على مجموعات من الأدوات الحجرية في بعض المواقع وبخاصة في موقع شيوخ فوقاني وحلونجي (الشكل: ٩). وقد سادت في تلك المواقع الفؤوس اليدوية ذات الأشكال المختلفة، على شكل لوزة أو قلب أو شكل مدبب أو متطاول أو بيضوي، وهي تشبه الأدوات التي وجدت في أحواض الفرات والعاصي ونهر الكبير الشمالي والمنسوبة إلى نفس المرحلة الآشولية العليا. وقد رافقت تلك الفؤوس القواطع وبعض الأدوات الخفيفة كالمكاشط والسكاكين.

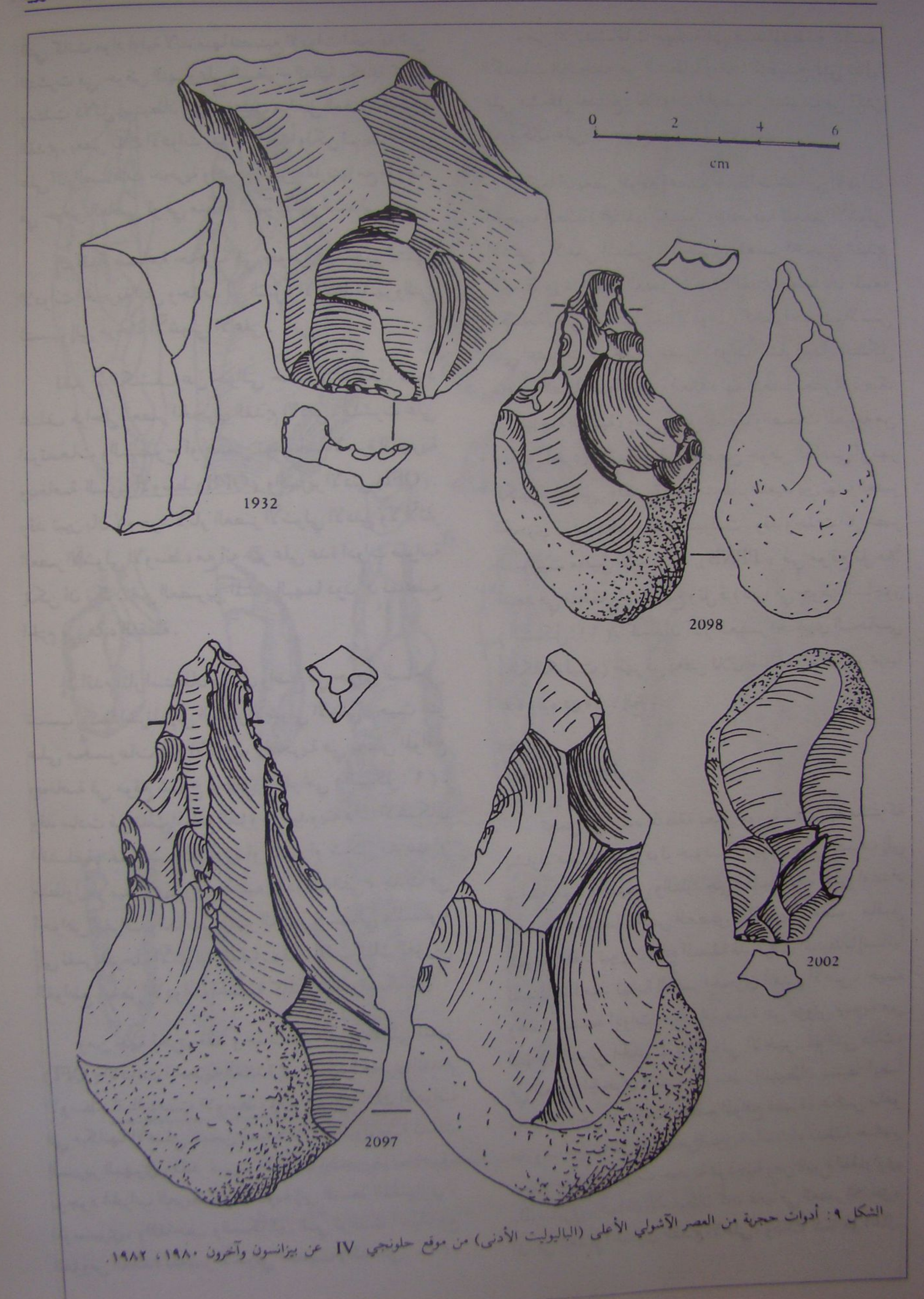
ومن جهة أخرى فقد وجدت في السرير الأدنى للنهر (QFI) الأدوات الحجرية العائدة إلى العصر الحجري القديم الأوسط، الباليوليت الأوسط، وقد ظهرت تلك الأدوات في مكانها الأصلي ضمن التشكلات الجيولوجية لذلك السرير النهري. لقد تميزت الأدوات الحجرية، بخاصة، بوجود الحراب العريضة، المنسوبة إلى النمط اللفلوازي / الموستيري، والمقاحف والسكاكين التي ترافقت أحياناً مع الفؤوس العائدة للعصر الآشولي الحديث (الشكل: ١٠).

ومن الاكتشافات الهامة في هذه المنطقة كانت الكميات الضخمة من الشظايا وبقايا التصنيع التي تدل على مشاغل تصنيع، للأدوات الحجرية، انتشرت في أكثر من مكان على السطوح المجاورة لوادي النهر.

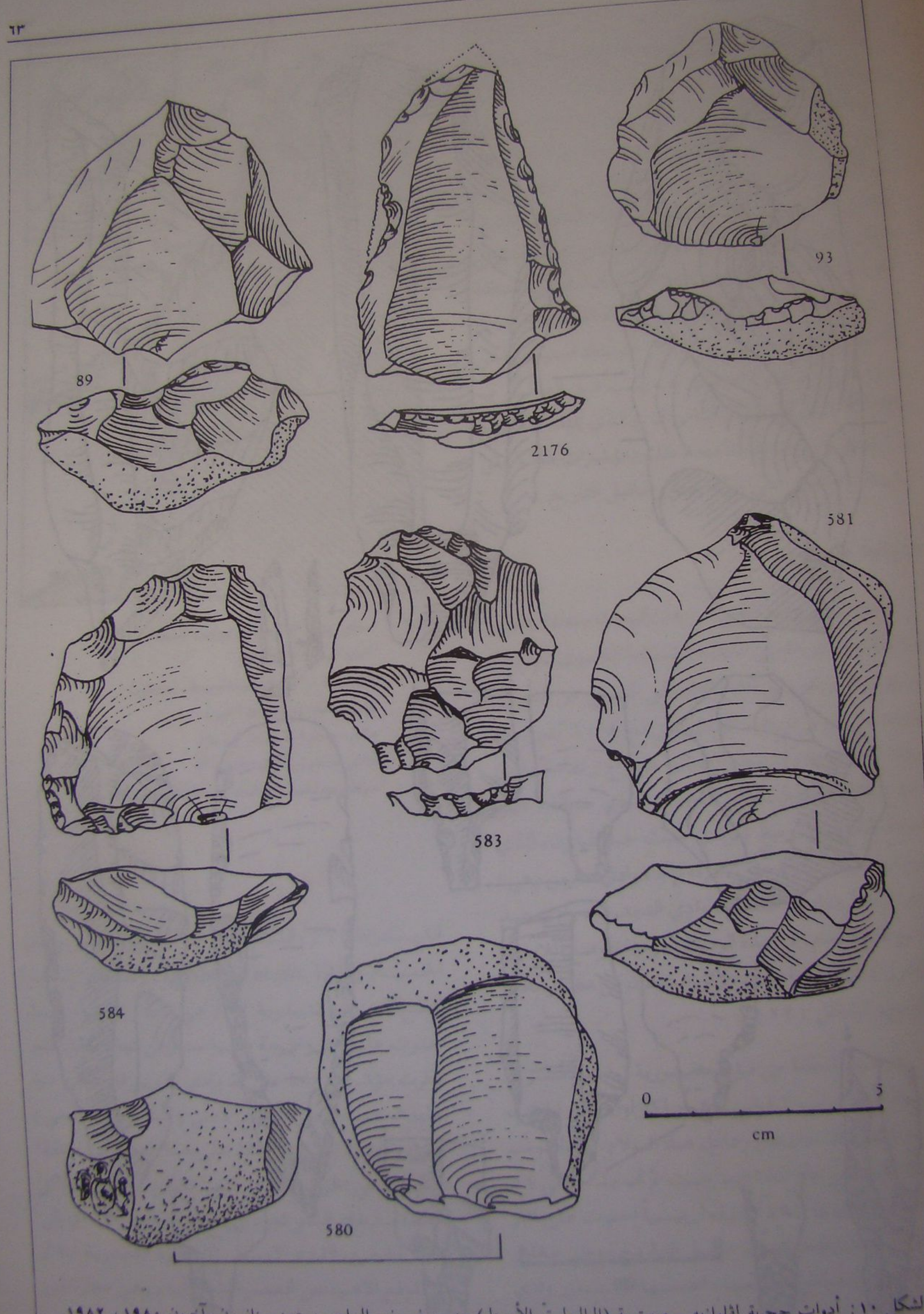
كما أن بعض المواقع أعطت خليطاً ضخماً من الأدوات الحجرية العائدة لمختلف العصور، وبخاصة للعصر الآشولي الأعلى والأعلى المتطور والأخير، وللعصر الحجري القديم الأوسط وربما لنهاية العصر الحجري القديم. علماً بأن طبيعة الكمخة، التي حملتها تلك الأدوات، كانت أحد أهم الأسس التي اعتمدت في تحديد عصر الأدوات المشار إليها. وبشكل عام فإن الصناعات الحجرية العائدة لهذا العصر تعتبر نموذجية، من الناحية التقنية، وهي تحمل الميزات والصفات المعروفة من مناطق أخرى في سورية، سواء من حوض العاصي أو نهر الكبير الشمالي. ولقد بقي الاستيطان ضعيفاً بين نهاية العصر الحجري القديم وحتى عصر النيوليت. وقد وجدت آثار عصر النيوليت ماقبل الفخار ب (PPNB) في مواقع تل ملاّ أسعد في منطقة وادي منبج وتل قره ديره في حوض الساجور (الشكل: ١١). كما أن آثار العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت) ظهر في بعض تلال المنطقة المذكورة (عرب عزة وقره ديره ... إلخ).

منطقة الجبول:

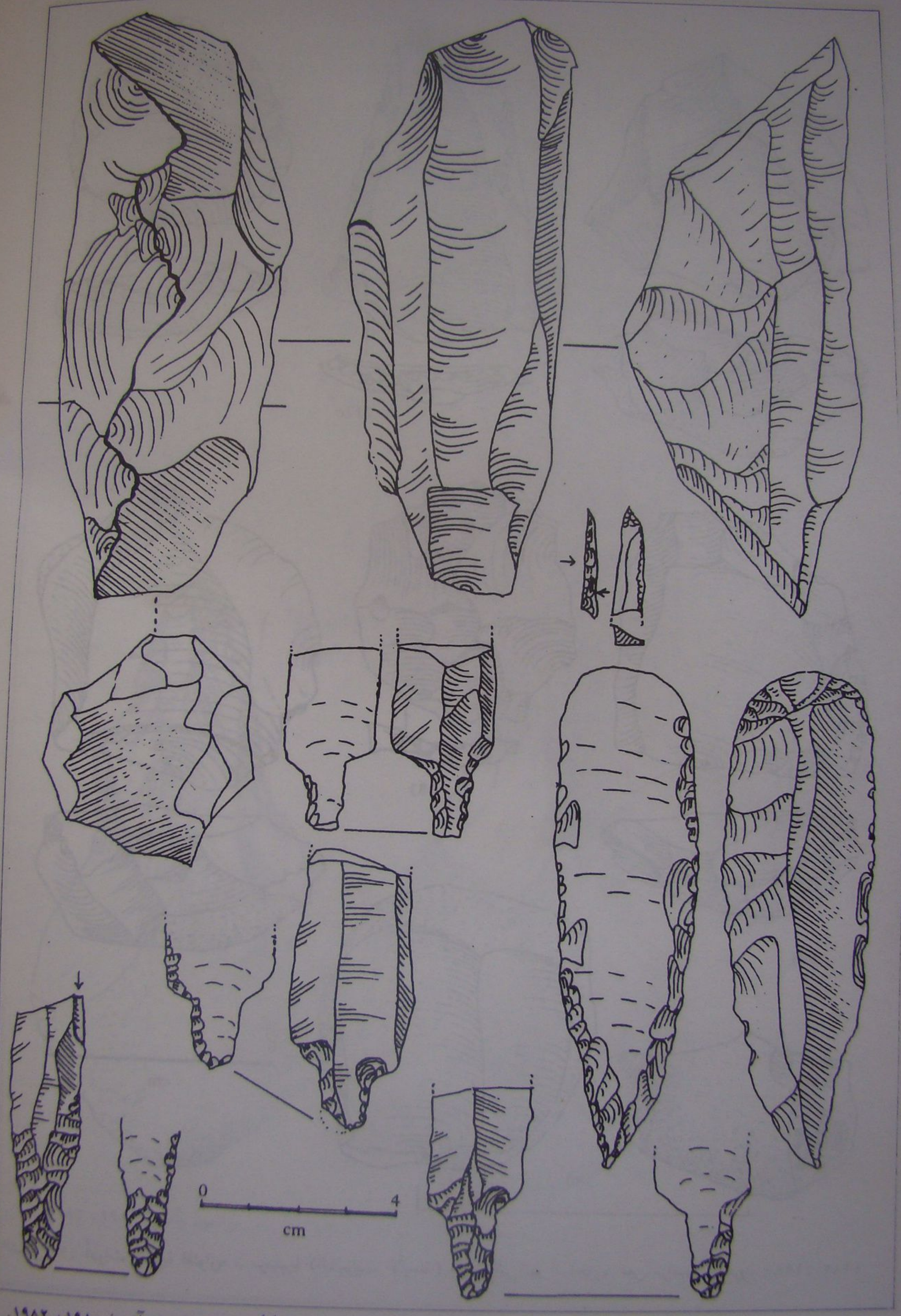
تعمل في هذه المنطقة بعثة سورية ـ فرنسية مشتركة يشارك فيها جيومورفولوجيون وآثاريون، وهي تهدف إلى دراسة الواقع البيئي والتاريخي، للمنطقة على امتداد العصور. وفيما يخص العصور الحجرية، عصور ماقبل التاريخ، فقد تبين أن هذه المنطقة قد عرفت استيطاناً إنسانياً بسيطاً بدأ منذ نهاية العصر الحجري القديم الأدنى، حيث وجدت بضعة أدوات حجرية، عبارة عن فؤوس يدوية من النوع الآشولي الحديث والآشولي الأخير. ثم تلى ذلك، في العصر الحجري القديم الأوسط، استيطان بسيط أيضاً وغير نموذجي إذ كانت معظم المواقع فقيرة، عكس ماهو معروف من مناطق أخرى من سورية باستثناء منطقة خناصر حيث عثر على أدوات حجرية نموذجية ومن النوع اللفلوازي ـ الموستيري. كما أن الاستيطان كان غائباً في العصر اللاحق، أي في العصر الحجري القديم الأعلى، وذلك كما هو الحال



الشكل ٩: أدوات حجرية من العصر الآشولي الأعلى (الباليوليت الأدنى) من موقع حلونجي IV عن بيزانسون وآخرون ١٩٨٠، ١٩٨٢.



الشكل ١٠: أدوات حجرية لفلوازيه ـ موستيرية (الباليوليت الأوسط) من حوض نهر الساجور، عمن بيزانسون وآخرون ١٩٨٠، ١٩٨٢.



الشكل ١١: أدوات حجرية من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب، من موقع تل ملأ أسعد عن بيزانسون وآخرون ١٩٨٠، ١٩٨٢.

في معظم مناطق سورية والمشرق. إن مرحلة الاستيطان الواضحة والأهم هي العائدة لنهاية العصر الحجري القديم ومطلع العصر الحجري الوسيط أي المرحلة المسماة بالكباري غير الهندسي حيث عثر على العديد من المواقع مثل عين الزرقا والمكمن، المتوضعة بخاصة بجوار ينابيع المياه القديمة. ثم نلاحظ فقراً، أو غياباً، في الإستيطان في العصر اللاحق المسمى العصر الكباري الهندسي والعصر النطوفي القديم. ولكن المنطقة تعود لتسكن بشكل واضح في العصر النطوفي الحديث منذ حوالي ١٠,٠٠٠ سنة ق.م. ثم ماتلبث المنطقة أن تهجر في المرحلة اللاحقة المسماة العصر الحجري الحديث قبل الفخار آ (PPNA) ثم يعاد استيطانها من جديد في العصر الحجري الحديث قبل الفخار ب (PPNB) حوالي الألف الثامن ق.م الذي يمثله هنا موقع بير الحمام، وليست لدينا، بعد ذلك، مؤشرات هامة على استيطان بشري حتى نهاية عصور ماقبل التاريخ.

٢,١ مغاور وادي القرطل (باليوليت أوسط)
٣ الديدرية /١/ (كبارى)
٤ الديدرية /٢/ (باليوليت أوسط، نطوفي)
٥ وادي حمام (باليوليت أخير)
٦ وادي حمام (باليوليت أوسط)
٧ وادي حمام (باليوليت أعلى ؟)
٨ مواقع سطحية باليوليت أوسط (في وادي الحمام)

منطقة عفرين:

نتناول في الجزء الثاني من هذا البحث منطقة عفرين إذ يشكل وادي عفرين النهاية الشمالية القصوى للإنهدام السوري الأفريقي في الجزء الشمالي الغربي من سورية، يجري نهر عفرين في هذا الوادي على مسافة ٦٠ كم شمال شرق حلب، مخترقاً منطقة جبلية تتراوح ارتفاعاتها بين ٤٥٠ ـ ٢٧٥م. فوق سطح البحر، وتحاذي منطقة جبل سمعان الحوض الأوسط للوادي حيث جبل ليلون، الذي تقوم فيه عدة وديان فرعية تخترقه بإتجاه وادي عفرين وهي: وادي قرطل، وادي حسنلو، وادي الديدرية، وادي عبد الله ووادي الحمام. في هذه الوديان الفرعية تتوضع الملاجىء والمغاور الأثرية التي أعطت دلائل استيطان من عصور ماقبل التاريخ (الشكل: ١٢).

درست المنطقة من قبل بعثة سورية/يابانية مشتركة يديرها عن الجانب الياباني تاكيرو اكازاوا، وعن الجانب السوري سلطان محيسن وعادل عبد السلام. وبدأ موسم المسح الأول في عام ١٩٨٧م، حيث تمَّ تحديد حوالي ٥٦ موقعاً أثرياً، بينها /١٦/ موقعاً رئيسياً احتوت على آثار واضحة لاستيطان إنسان ماقبل التاريخ. وهي مغاور أوملاجىء أومواقع سطحية، أهمها مغاور وادي الديدرية /١/ والديدرية /٢/، ووادي قرطل ووادي الحمام (Muhesen et *alii*, 1988)، وقد تبين إثر هذا المسح أن مغارة الديدرية /٢/ هي الأكثر أهمية، حيث احتوت على آثار واضحة وغنية سنعرض لها لاحقاً. لقد توفرت مؤشرات هامة على أن وادي عفرين قد سكن منذ نهاية العصر الحجري القديم الأدنى (الباليوليت الأدنى) حيث وجدت الأدوات الدالة على هذا العصر في منطقة دير صوان في الحوض الأعلى لنهر عفرين. ولكن الدلائل الأهم لاستيطان البشر تعود إلى عصر النياندرتال، أي إلى العصر الحجري القديم الأوسط. إن مغارة الديدرية /٢/ هي الموقع الأهم، من العصر المشار إليه، وهي مغارة من

النوع الكارستي (Carstique) أبعادها حوالي ٥٠ × ١٥ × ١٠م ويوجد في عمق المغارة مدخل آخر، أبعاده حوالي ١٠م، وهو من أهم صفات هذه المغارة التي يعني اسمها، ديديرية، ذات البابين، باللغة الكردية. نقبت المغارة في أعوام ١٩٨٩ - ١٩٩٠م، ثم توقف العمل في أعوام ١٩٩١ - ١٩٩٢ ليستأنف منذ عام ١٩٩٣م، ولازال التنقيب مستمراً بشكل سنوي. وقد تم الحصول على نتائج بالغة الأهمية وبخاصة على المستويين الأثري والانثروبولوجي (الشكل: ١٣).

تركز التنقيب في الحيز الأعمق من المغارة، بمربعات ٢×٢م كما تمَّ تحديد /٥/ خمس سويات جيولوجية أساسية ضمت /١٢/ اثنتى عشرة طبقة أثرية.

السوية الأولى: وتضم الطبقات ١ - ٢، هي سوية مختلطة وليست في مكانها الأصلي، ترسباتها ناعمة ذات لون بني فاتح وفيها حصى صفراء. وجدت في هذه السوية آثار من العصور التاريخية، وبخاصة من العصر الآرامي، أتت من حفرة عمقها ٢,٥م اختلطت فيها الآثار من عصور مختلفة بما فيها فخار من القرنين السابع والسادس ق.م (الآرامي المتآخر).

أما بقية السويات الجيولوجية، من السوية الثانية إلى السوية الخامسة، فقد كانت في مكانها الأصلي وهي جميعها، تختلف بشكل واضح، فيما بينها في طبيعة ترسباتها التي تختلف أيضاً عن ترسبات السوية الأولى وكل هذه السويات تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط.

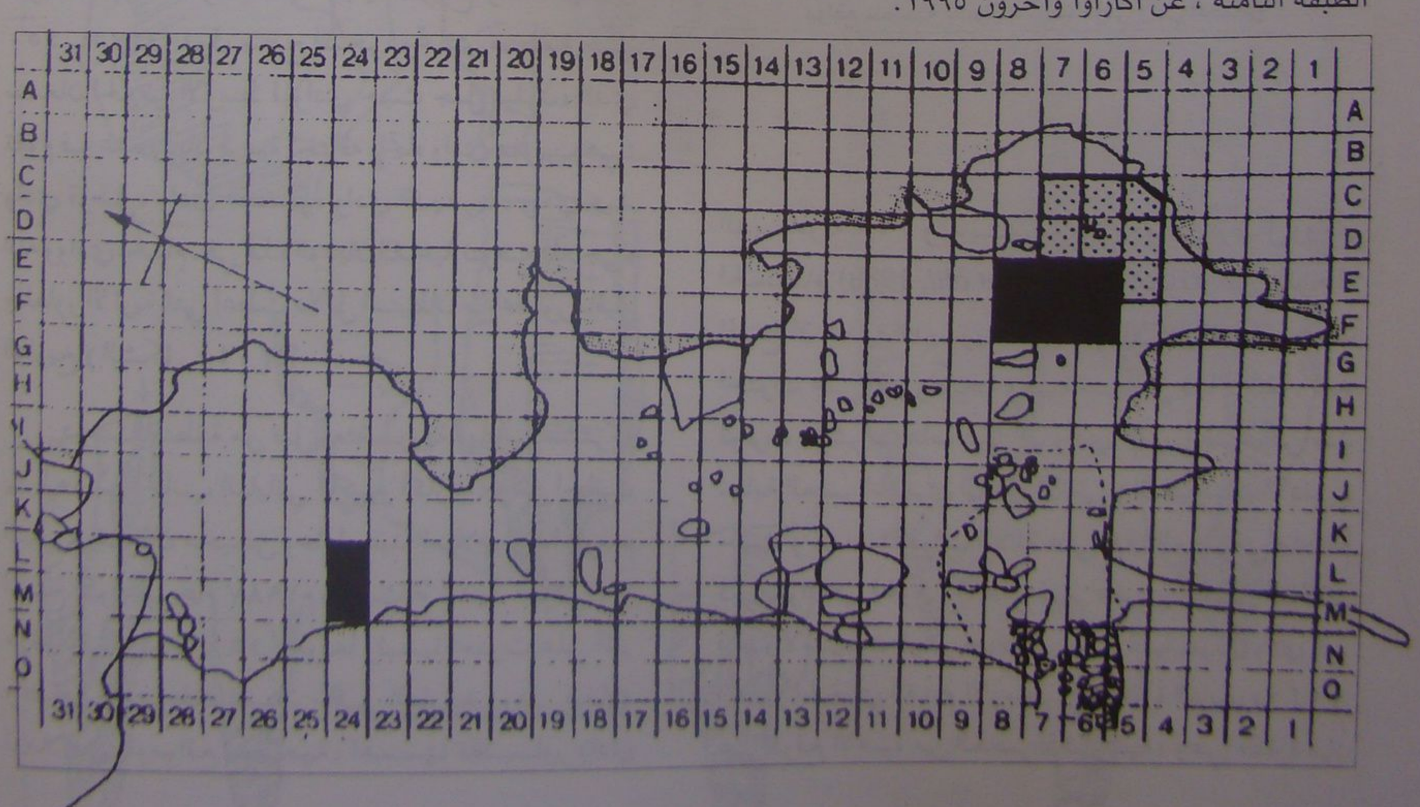
السوية الثانية: تضم الطبقات /٣ - ٦/ وتتألف من ترسبات متماسكة وتربة حمراء إلى بنية اللون تتخللها حصى كلسية بأشكال مختلفة.

السوية الثالثة: وتضم الطبقات /٧-٨/ وتتألف ترسباتها من تربة لونها أبيض أو رمادي، نتيجة الوجود الكثيف فيها للمواقد.

السوية الرابعة: تضم الطبقات /٩ - ١١/ وترسباتها متماسكة ذات لون بني غامق.

السوية الخامسة: تضم الطبقة ١٢، وتتألف من ترسبات لتربة بنية إلى صفراء وفيها كمية كبيرة من الأحجار الكلسية.

الشكل ١٣: مخطط مغارة الديدرية /٢/ وتظهر عليه مربعات التنقيب، بما فيها المربع D-06 الذي وجد فيه الهيكل العظمي في الطبقة الثامنة، عن أكازاوا وآخرون ١٩٩٥.



الصناعات الصوانية:

لقد أعطت جميع الطبقات الأثرية للمغارة أدوات حجرية تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط (الباليوليت الأوسط) ومع أن هذه الطبقات لم تكن غنية بنفس الدرجة، لكن يلاحظ أن الطبقات العليا كانت أكثر غنى من الطبقات السفلى. لقد سيطر نمط التصنيع اللڤلوازي على جميع الصناعات الحجرية من مختلف الطبقات. فسادت بخاصة النوى المحضرة بالطريقة اللڤلوازية المتلاقية (Convergent Levallois) ، وهي نوى استخدمت، بخاصة، لاستخراج الحراب ذات الرؤوس الحادة (Pointes). وهناك نوى لڤلوازية لاستخراج الشظايا (Éclats) وأخرى لاستخراج النصال (Lames). معظم النوى ذات سطح طرق واحد وبعضها يحمل سطحين للطرق وهناك نوى متعددة السطوح. أهم الأدوات كانت الحراب ذات النهاية العريضة والرأس الحاد وهي قليلة السماكة، مثل الحراب الموستيرية (Pointe Moustérienne). وهناك المقاحف المختلفة الأنواع (Racloirs) وبخاصة المقاحف ذات الحد القاطع، الواحد، المستقيم أو المحدب أو المقعر وهناك مقاحف ثنائية أي لها حدان قاطعان بأشكال مختلفة مستقيمة أو محدبة أو مقعرة. كما ظهرت الأدوات التي تميز العصر اللاحق، العصر الحجري القديم الأعلى، الباليوليت الأعلى، وبخاصة الكواشط (Grattoirs) والأزاميل (Burins) الأدوات المسننة (Denticulés).

من الصعب حالياً، مالم تتم الدراسة النهائية للمواد الحجرية، تحديد الصفات التقنية والنمطية للصناعات الحجرية لمغارة الديدرية / ٢ / ولكن الطابع العام لها يسمح باعتبارها ممثلة لمرحلة العصر الحجري القديم الأوسط وهي المرحلة المسماة الطابون ب (Tabun B)، والتي تمتاز، بخاصة، بسيادة الحراب القصيرة ذات القاعدة العريضة (الشكل: ١٤ و١٥).

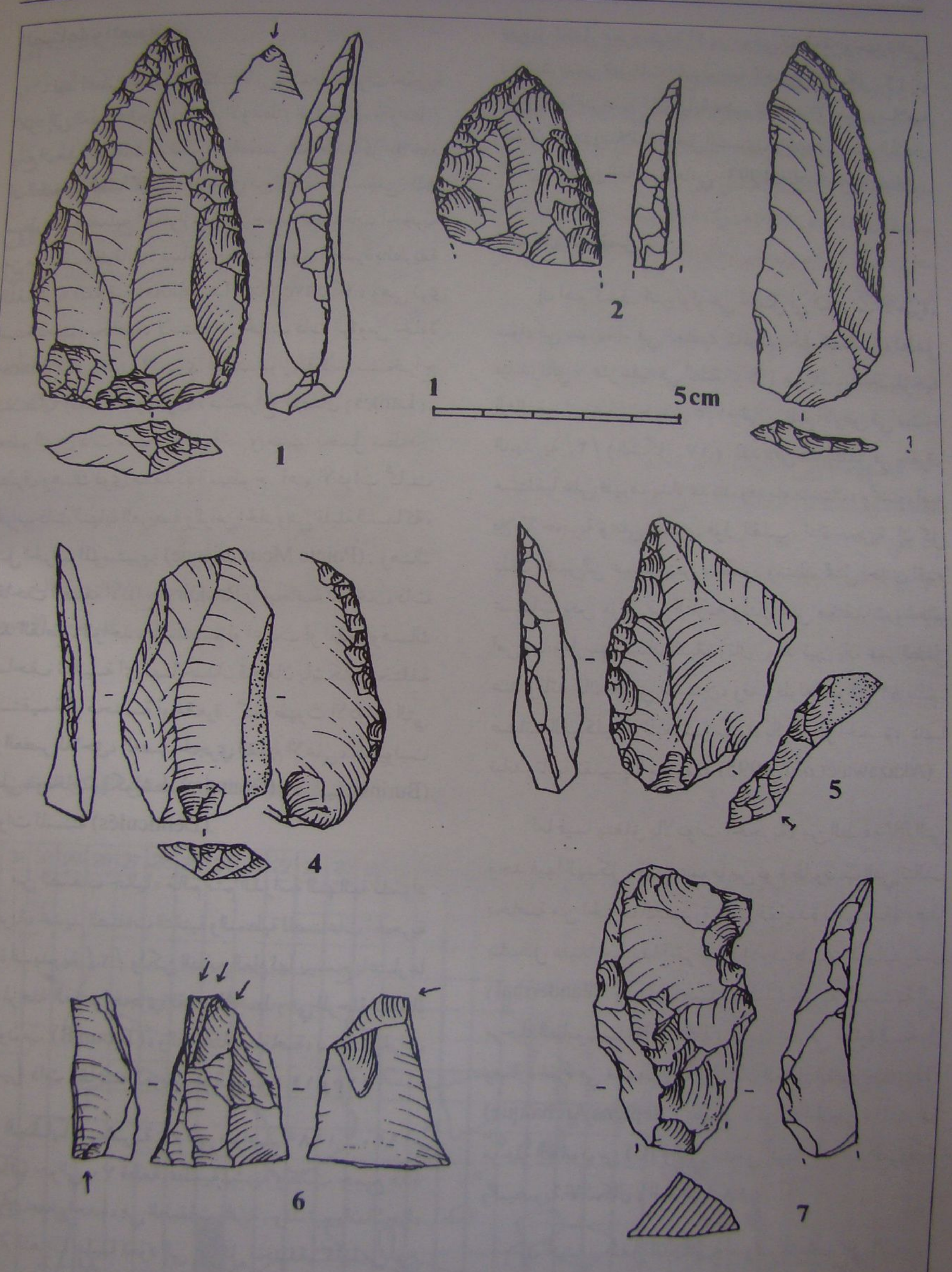
البقايا البشرية: تم في مواسم ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠م اكتشاف حوالي ٧٠ قطعة عظمية بشرية وكانت جميع هذه الأجزاء، عدا واحدة، في الطبقات المخرّبة. وقد تبين أن الأجزاء التي تمّ التعرف عليها تعود إلى هياكل مختلفة، كلها من نوع النياندرتال المعروف من مواقع الطابون والعامود في فلسطين (Tillier et *alii*, 1988) وشانيدار في العراق (Trinkaus, 1983). أهم هذه الأجزاء هو عظم الساعد الأيسر، كاملة تقريباً، لطفل عمره بضعة أشهر، وهي القطعة الوحيدة التي وجدت ضمن الطبقات الجيولوجية الأصلية (الشكل: ١٦)، ومن بين ماعثر عليه كان نهاية عظم الساعد الأيسر، وسلامية اليد اليمنى، وسلامية الرجل اليسرى، وجزء من عظم الكتف الأيمن، و السن القاطع الأمامي (Akazawa et *alii*, 1993).

الهيكل العظمي:

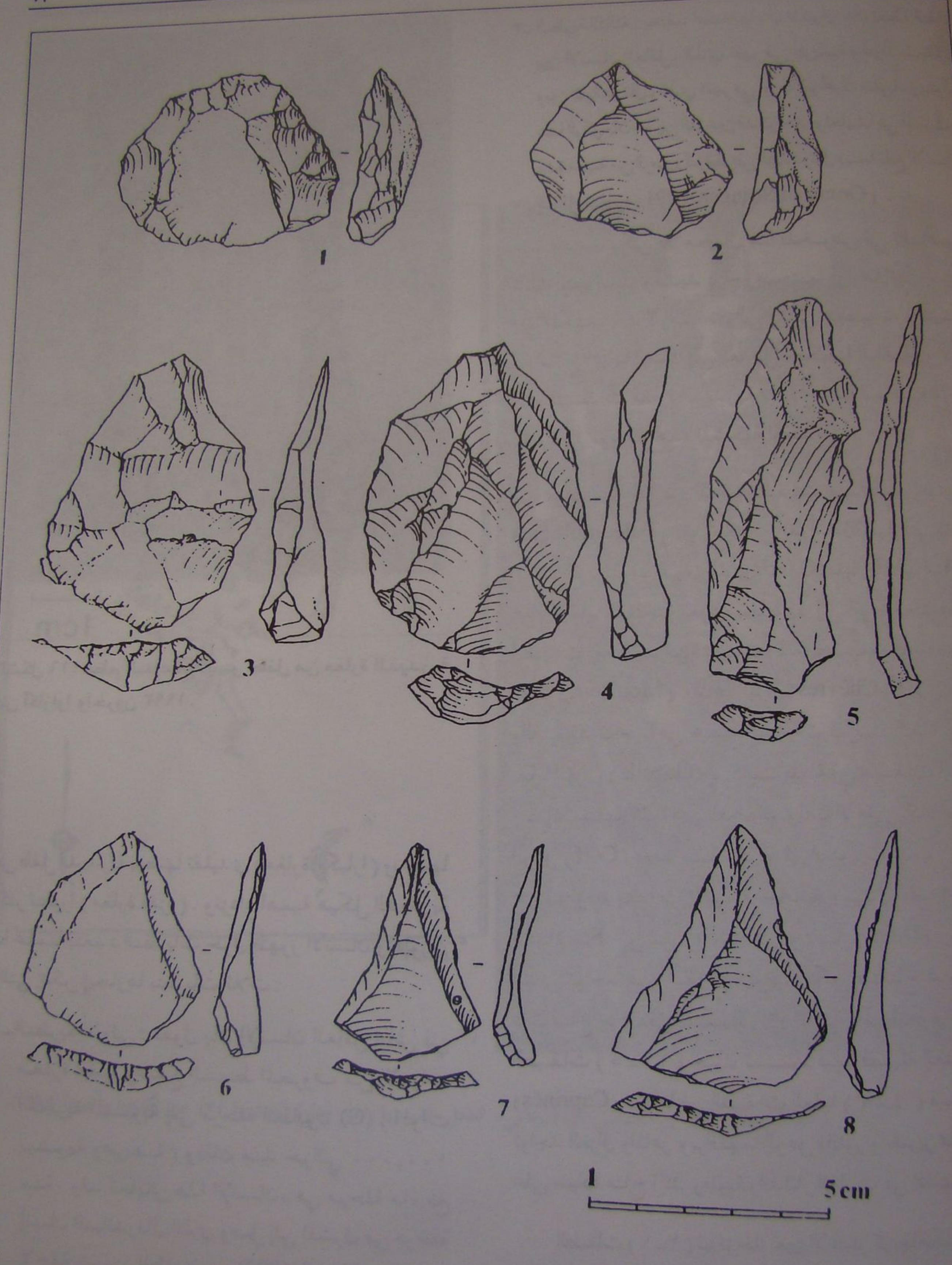
إن أهم كشف أنثروبولوجي حصل في السنوات الأخيرة، سواء في سورية أو في العالم، كان الهيكل العظمي، لطفل نياندرتالي، عثر عليه في الطبقة (8) من السوية الجيولوجية الثالثة على عمق حوالي ١,٥م في سطح الأرض في مغارة الديدرية / ٢ / (الشكل: ١٧). لقد دفن هذا الطفل في حفرة، مستلقياً على ظهره، يداه ممدتان وقدماه مثنيتان، وتحت رأسه بلاطة حجرية وعلى صدره، فوق القلب، أداة حجرية. إن كل ذلك يشير إلى عملية دفن مقصود ومنظم تمثل إحدى أقدم عمليات دفن الموتى في التاريخ وتدل على معتقدات وشعائر آمن بها ومارسها إنسان النياندرتال. وقد تبين بأن عمر الطفل عند وفاته كان حوالي السنتين، وقدر طوله بحوالي ٨٣ سم. صفاته الهيكلية، المتعلقة سواء بالرأس أو الجسم، كلها نياندرتالية تقليدية معروفة (Akazawa et *alii*, 1995).

أما فيما يتعلق بالأدوات الحجرية، من الطبقة /8/ التي وجد فيها الهيكل، فهي عموماً من نوع طابون ب التي تتألف بخاصة من الحراب القصيرة ذات القاعدة العريضة، وهذا يشكل دليلاً جديداً آخر على الارتباط بين النياندرتال (Néanderthal) وبين الصناعات الحجرية المنسوبة إلى مرحلة الطابون ب (Tabun B)، بينما نجد في مغارة السخول ومغارة قفزة في فلسطين أن الإنسان العاقل القديم (Homo-Sapiens Archaïque). صنع الأدوات الحجرية المتنوعة مرحلة الطابون س (C) والتي تنتمي إليها الأدوات العريضة والبيضوية الأشكال (الشكل: ١٨).

إن كشف طفل الديدرية سوف يساعد في الإجابة على أسئلة كثيرة تتعلق بظهور النياندرتال وعلاقته بالأنواع البشرية التي سبقته والأنواع التي تلته. إذ أن المكتشفات التي حصلت في المغاور الفلسطينية دلت على أنواع مختلفة



الشكل ١٤: أدوات حجرية لفلوزيه ـ موستيرية (الباليوليت الأوسط) من مغارة الديدرية /٢/)



الشكل ١٥ : أدوات حجرية لڤلوازيه ـ موستيرية (الباليوليت الأوسط من مغارة الديدرية /٢/) عن أكازاوا وآخرون ١٩٩٣.



الشكل ١٦ : عظم الساعد الأيسر لطفل من مغارة الديدرية عن أكازاوا وآخرون ١٩٩٣.

عن طفل الديدرية بعضها تقليدي (مغارة الكبارا) وبعضها أكثر تطوراً (مغارة قفزة) . وتزداد أهمية هيكل الديدرية إذا علمنا بتعدد النظريات حول ظهور الانسان وتطوره، والتي يمكن إيجازها بنظريات ثلاث :

١ـ النظرية الأولى : تقول بأن الإنسان العاقل عاش في مغارة قفزة وصنع النمط المعروف من الأدوات الحجرية المنسوبة إلى مرحلة الطابون (C) (أدوات بيضوية وعريضة) وذلك منذ حوالي ١٠٠,٠٠٠ سنة . وقد تعايش هذا الإنسان، في مرحلة ما، مع إنسان النياندرتال الذي وصل إلى المشرق في مرحلة لاحقة تسمى الطابون ب (Bar-Yosef, 1992) .

٢ـ النظرية الثانية : تقول بأن كلاً من الإنسان العاقل والنياندرتال هما شكلان مختلفان لنفس نوع الإنسان العاقل، الباكر، في الشرق (Wolpoff, 1991) .

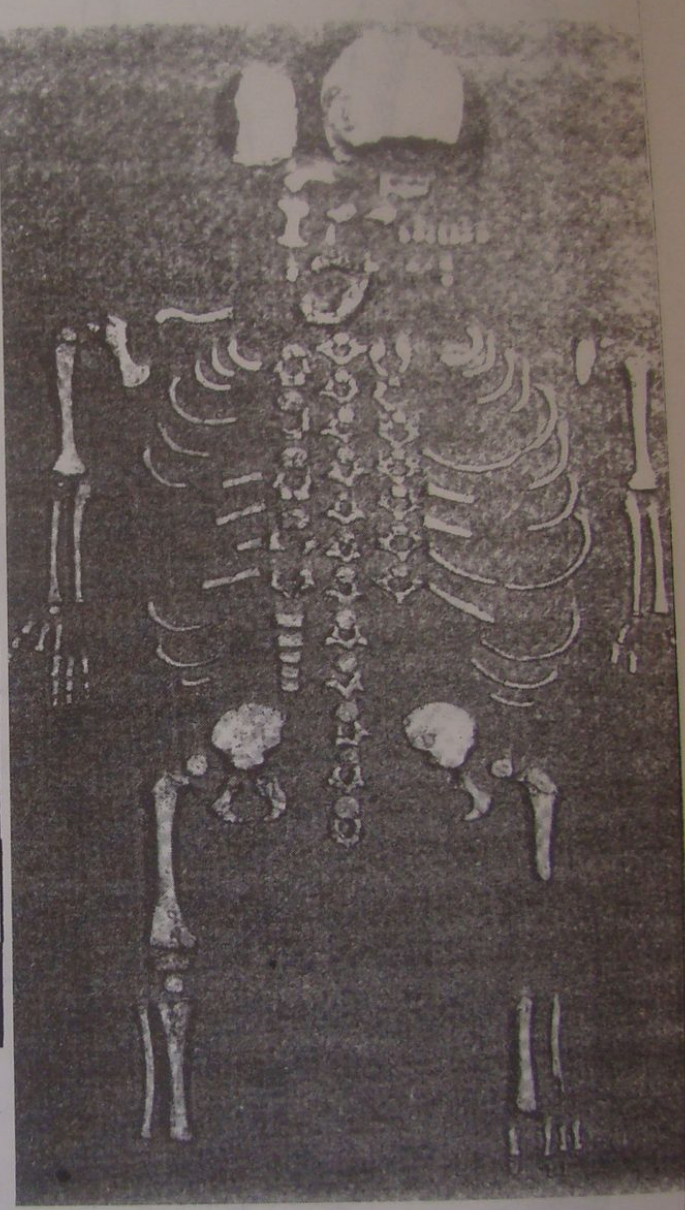
٣ـ النظرية الثالثة : يعتقد أصحابها بأن المشرق كان نقطة التقاء بين الانسان العاقل، الذي ظهر في أفريقية وتحرك شمالاً، وبين النياندرتال، الذي ظهر في أوربة ثم تحرك جنوباً، ويقول هذا الرأي بأن هذين النوعين قد تواجدا وتعايشا في المشرق، مدة معينة من الزمن، ثم انقرض النياندرتال بينما تابع الانسان العاقل تطوره (Grun and Stringer، 1991) .

ومهما يكن فلا مجال هنا للخوض في تفاصيل تلك النظريات وتحديد درجة صحتها أو بطلانها، سيما وأن المكتشفات لازالت تتوالى وتأتي بمعطيات جديدة، سوف تؤدي بلا شك إلى تعديل أحكامنا الراهنة، و لابد أن مكتشفات مغارة الديدرية/ ٢ / سوف تساهم بدرجة كبيرة في توضيح هذه المشكلة المعقدة.

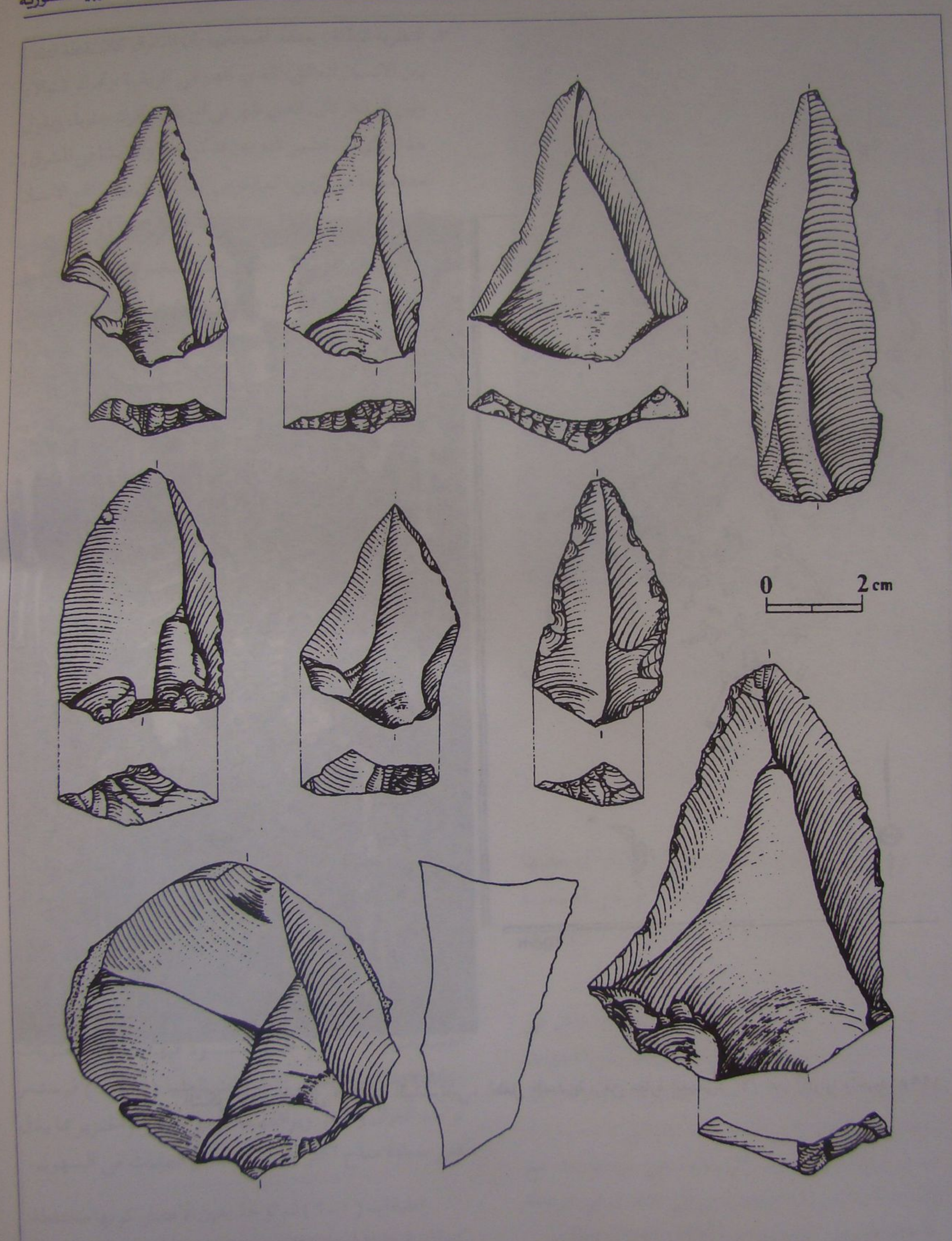
وفيما يخص المكتشفات البالنتولوجية (Paléontologie) فقد تبين من الدراسة الأولية التي قام بها السيد كريستوف غريغو (C.Griggot) للبقايا الحيوانية بأن هذه البقايا العظمية تعود، بخاصة، إلى أنواع مختلفة من الثدييات ومعظمها من الثدييات آكلة العشب وبخاصة فصيلة الغنم (Mouflons) والماعز البري (Chèvres) ، اذ أن الماعز والغنم قد تواجدا في جميع السويات تقريباً. كما تبين أن بقايا الغزال (Gazelle) ، كانت قليلة في الطبقات الدنيا، وتزداد نسبتها كلما اتجهنا نحو السويات الأعلى. كما تواجد الوعل (Cerf) أيضاً بنسبة قليلة في السويات الدنيا (١١ـ ٥) ثم ازداد بدءاً من الطبقة الخامسة حيث يرافقه الخنزير (Sanglier) والثور (Auroch) والآيل (Daim). وعلى أساس تواجد هذه البقايا الحيوانية يمكن استنتاج قيام بيئة ذات مناخ جاف في القسم الأول (الأدنى) من المغارة أي في الطبقات (٥ ـ ١١) حيث تسود فيها فصيلة العنزيات (Caprinés) . وأما في الطبقات العليا (٣ ـ ٤) فيستمر تواجد الغزال والماعز ويرافقهما الوعل والثور والخنزير مما يدل على سيادة مناخ أكثر رطوبة وانتشار الغابات في السهول.

الطبقات (١ ـ ٢) لم تؤخذ بعين الاعتبار كونها مختلطة. كما أن البقايا الحيوانية المدروسة تميزت بغياب الأجزاء الكاملة من الجماجم والفقرات ونهايات العظام والأسنان مما يجعل من الصعب دراسة عمليات استخدام المكان والتصرف بالذبائح بما في ذلك عملية تقصيب تلك الحيوانات.

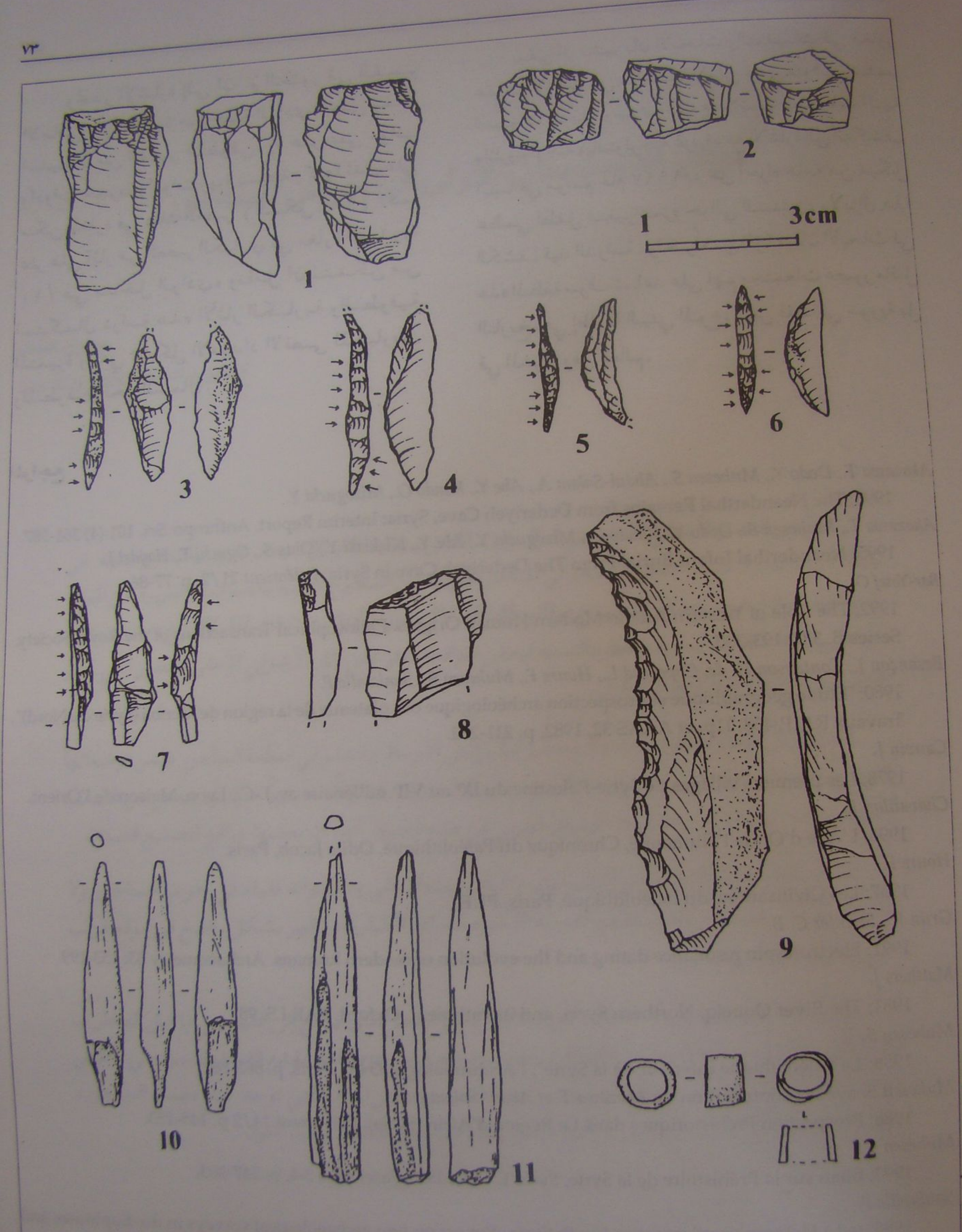




الشكل ١٧ : الهيكل العظمي اليباندرتالي، لطفل الديدرية، من مغارة الديدرية /٢/ عن أكازاوا وآخرون ١٩٩٥.



الشكل ١٨ : أدوات حجرية لفلوازية ـ موستيرية من الطبقة الثامنة في مغارة الديدرية /٢/ حيث وجد الهيكل العظمي. عن أكازاوا وآخرون ١٩٩٥.



الشكل ١٩: أدوات حجرية نطوفية من مغارة الديدرية /٢/ عن أكازاوا وآخرون ١٩٩٣.

وتجدر الإشارة إلى أنه تمّ العثور في القسم الأمامي من المغارة من جهة الوادي، على بقايا استيطان من العصر النطوفي، إذ عثر على مواقد وأدوات حجرية وأدوات زينة بسيطة وكلها تدل على سكن المغارة في ذلك العصر (الشكل: ١٩). كما عثر على آثار من العصر الكباري في مغارة الديدرية /١/ في مدخل الوادي، ونأمل أن نتمكن من استكمال دراسة هذه الآثار الكبارية والنطوفية المتميزة والتي تشكل الامتداد الأقصى للكباريين وللنطوفيين نحو الشمال.

يبقى أن نشير بأن الأبحاث والتنقيبات في مغاور عفرين لازالت في مراحلها الأولى وهي سوف تستمر لسنوات طويلة وسوف تقدم بلاشك معطيات أثرية وأنثروبولوجية وبالنتولوجية غزيرة، مع الاشارة إلى أنه كشف أيضاً في موسم عام ١٩٩٧م، عن أجزاء هامة من هيكل عظمي لطفل صغير عمره حوالي السنتين، ولايزال هذا الكشف قيد الدراسة. وأخيراً فمن المؤكد بان الأبحاث في هذه المنطقة سوف تساعد على فهم مجتمعات عصور ماقبل التاريخ، في إطارها البيئي المنوع، ليس فقط في سورية بل في المشرق وفي العالم.

المراجع

Akazawa T., Dodo Y., Muhesen S., Abdul-Salam A., Abe Y., Kondo O., Mizoguchi Y.
1993; The Neanderthal Remains from Dederiyeh Cave, Syria: Interim Report. Anthropo. Sci. 101 (4) 361-387.

Akazawa T., Muhesen S., Dodo Y., Kondo O., Mizoguchi Y., Abe Y., Nishiaki Y., Ohta S., Oguchi T., Haydel J.
1995; Neanderthal Infant Burial From The Dederiyeh Cave in Syria. *Paléorient* 21/2, p. 77-86.

Bar-Yosef O.
1992; The Role of Western Asia in Modern Human Origins. Philosophical Transactions of the Royal Society, Series B. 337: 193-200.

Besançon J., Contenson H. de, Copeland L., Hours F., Muhesen S., Sanlaville P.
1980; "Étude géographique et prospection archéologique des plateaux de la région de Menbij (Syrie du Nord)", Travaux R.C.P. 438, 11p. et AAAS 32, 1982, p. 211-232.

Cauvin J.
1978; Les premiers villages de Syrie-Palestine du IX^{e} au VII^{e} millénaire av. J.-C., Lyon, Maison de l'Orient.

Chavaillon J.
1996; L'Âge d'Or de l'Humanité, Chronique du Paléolithique, Odile Jacob, Paris.

Hours F.
1987; Les Civilisations du Paléolithique, Paris, PUF.

Grün R., Strinfer C. B.
1991; Electron spin resonance dating and the evolution of modern humans. Archaeometry 33: 153-199.

Matthers J.
1981; The River Queiq, Northern Syria, and its cathment, Oxford, BAR I.S. 98.

Muhesen S.
1988; Le Paléolithique Inférieur de la Syrie", l'Anthropologie 93 (3), Paris, p. 863-882.

Muhesen S. avec la contribution de *Akazawa T. et Abdul-Salam A.*
1988; Prospection Préhistoriques dans La Région d'Afrin (Syrie). Paléorient 14/2 p. 145-153.

Muhesen S.
1993; Bilan sur la Préhistoire de la Syrie, *Syria* T. LXIX 1992-Fascicules 3-4, p. 247-303.

Sanlaville P.
1985; (ed.) Holocene settlement in North Syria: Report on two archaeological surveys in the Euphrates and Sajour valley in 1977 and 1979, Oxford, BAR I.S. 238.

Tillier A.-M., Arensburg B., Rak Y., et Vandermersch B.
1989; Les Sépultures Néandertaliennes du Proche-Orient: état de la question. Paléorient 14/2, p. 130-136.

Wolpoff M. H.
1991; Levantines and Londoners. Science 255: 142.